تحليلات و آراء

التناغم وثقافة القطيع: دروس مستقاة من المجتمع الياباني

بقلم: السفير عبد الكريم طعمه
سفير جمهورية العراق في طوكيو

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية
26 نيسان 2025

تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزا علميا بحثيا يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والمجتمعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية الا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

للتواصل

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcrsiraq@yahoo.com

www.hcrsiraq.net

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية

بعدما عشتُ في اليابان لسنتين وكنتُ شغوفاً في مراقبة المجتمع الياباني و الفرد الياباني و محاولة اكتشاف سرّ تطوّره او تميّزه و مقارنته مع مجتمعنا او المجتمعات التي عشتُ فيها، فكان من الأمور الأولى التي لفتَتْ نظري هو سلوك المجتمع المنسجم مع بعضه البعض حتى كأنك لا تجدُ افراداً بل جزيئات متناغمة و منسجمة او متماثلة تكوّن جسماً واحداً هو المجتمع الياباني. فأخذتُ اتدبّر في ذلك و استرجعتُ ما عرفتهُ في المجتمعات العديدة التي عشتُ فيها ثم وجّهتُ وجهي نحو القرآن الكريم بصفته كتاب الله الخالد و لكونه يملك الحقيقة المطلقة و حاولتُ ان اجد فيه العلاقة بين الفرد و المجتمع و نظرته للفرد و للمجتمع.

سأتطرّق في هذه الصفحات لظاهرة الانسجام او التناغم كما يسمّيها اليابانيون. و بالمناسبة ان عصر الامبراطور الحالي هو عصر "الانسجام الجميل"، و باليابانية هي ريوا Reiwa، و بالانكليزية هي "Beautiful Harmony"، و قد أخذها جلالة الامبراطور الحالي من قصيدة يابانية قديمة جداً.

ان هذا الموضوع، أعني التناغم او الانسجام بين مكوّنات المجتمع، المقصود به سلوك مجموع الناس باتجاه واحد، و قد يصحُّ ان نطلق عليه "سلوك القطيع" و هو في جوهره تقليد و انسياق مع الاتجاه العام للمجتمع، و قد يوشِكُ ان يكون سلوكاً غريزياً، يشبه الى حدٍ بعيد سلوك الحيوانات عندما تكون في مجموعة او قطيع.

ان "سلوك القطيع" أو "التسليم و الذوبان في المجموع"، و ان يحيى الفردُ و يعمل للجماعة و يتخلّى عن "فرديّته" و يكفَّ عن استعمال عقله مُسلِّماً لحركة المجموع ساعياً للانسجام مع المجتمع و الذوبان فيه هي غاية ما تسعى لخلقه الحكومات في الشعوب التي تقع تحت سيطرتها، و أنه منتهى أمنية الاباطرة و الملوك، فاذا تمكّنوا من خلق مجتمع مطيع بصمت و مسلِّمٌ أموره لهم بكل خضوع فهذا هو قمة الإنجاز و غاية المُنى عندهم! لماذا؟ لأن المَلك او الحاكم سيطمئن بعد ذلك الى ان أوامره و تعليماته ستُنفَّذ بشكل كامل و صارم و سيحكم براحة من دون اية مقاومة او معارضة من الشعب.

نسألُ هنا هل ان التسليم و الطاعة المطلقة للحاكم أمر محمود و جيد، أم انه أمرٌ سيء و ضارٌ بالمجتمع؟

عندما قدّمتُ أوراق اعتمادي لجلالة امبراطور اليابان، سألني عن أكثر شيءٍ لفت نظري و أعجبني في اليابان؟ فقلتُ لجلالته؛ ان اليابان ليست متقدّمة تكنلوجياً لدرجة ملفتة للنظر، فهناك دولٌ قد سبقتها! و ليست مزدهرة بشكل ملفت للنظر فهناك من الدول أكثر ازدهاراً منها، و عدّدتُ اموراً أخرى ليست اليابان هي الأولى في العالم. فسألني إذن ما ذا فيها؟ قلتُ؛ أن فيها شعباً رائعاً هو أعظم هدية لأي حاكم، فهم شعبٌ مطيع، و مسلّمٌ للحكومة بهدوء و اطمئنان! فهم ثروتكم العظمى و ميزتكم الكبرى.

و في رأيي المتواضع ان هذا كان أبرز عامل لنجاح الرسول محمد صلى الله عليه و آله في نشر دعوته و بناء دولة الإسلام الأولى و في فترة قصيرة و في بيئة متخلّفة جداً. و هذا هو الذي طلبه القرآن الكريم من المسلمين و شدّد عليه كثيراً؛ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)سورة النساءآية65)

فلتحقيق أي انجاز على مستوى الأمة لابد من حركة المجتمع، مجتمعاً، ككتلةٍ واحدةٍ نحو هدف واحد و تحت راية واحدة. و بهذا تقدّمَتْ الصين و حقّقت معجزتها العظمى فقد نقلت في عقود قليلة أمّة المليار انسان من الجوع و التخلّف نحو ريادة العالم فأضحى اقتصادها هو الأول في العالم و إنجازاتها لا تُجارى!

و هو نفسه كان السرُّ وراء تقدّم اليابان و نهضتها إذ كان الشعب الياباني مُسلِّماً مطيعاً للامبراطور لدرجة انهم يعدّونه من نَسلِ الإلهة! و لهذا بعد الاحتلال الأمريكي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سعت أمريكا الى تحطيم مكانة الامبراطور، و منعته من ممارسة السياسة، و الهدف هو منع اية احتمالية ان يسير المجتمع الياباني متحداً خلف الامبراطور، باعتباره شخصاً مقدّساً فوق مستوى البشر. و هكذا تفعل أمريكا عندما تتولّى و تسيطر على أمة ما فأنها تسعى الى تفتيت المجتمع و تحطيم أي رمز وطني قد يكون قطباً يلتفُ حوله الناس و بالتالي قد ينتج حركة مجتمع بكامله نحو هدفٍ واحدٍ، فعندها لا يمكن لأمريكا او غيرها ان تقف بوجه حركة الأمة المتماسكة و المتحدة حول قائد مخلص و شجاع.

هل نريد ان تقول ان "سلوك القطيع" حسنٌ و ممدوح بالمُطلق؟

قبل الإجابة لقد لاحظنا ان "السلوك الجمعي" او "سلوك القطيع" في المجتمعات الإنسانية قد يحقّق نتائج إيجابية. لكن الإجابة الصحيحة على السؤال أعلاه تعتمد على الحاكم او القائد؟ فاذا كان حكيماً و شجاعاً و عارفاً بزمانه و مخلصاً في خدمة شعبه و رحيماً بهم لدرجة تبعث على الاطمئنان في نفوسهم: انه لن يقودهم الى ضلال و لن يؤدّي بهم الى الهلكة! و أنه غير قابل للخطأ، فعند ذاك نِعمَ السلوك هو "سلوك القطيع"! و هذا ما أراده الله تعالى عندما أمر المسلمين بالتسليم و الطاعة المطلقة للرسول محمد صلوات الله تعالى عليه و على آله. لكنهُ قبْلَ ان يطالبهم باتباع الرسول اتباعاً مطلقاً و ان يسلّموا له تسليما، أبلغهم ان هذا الانسان متصلٌ بالله تعالى: خالق الخلق و مدبّر الكون و الحكيم المطلق و العالم المطلق، و ان هذا الرسول شخصٌ ليس مثلكم بل هو لا يعتريه النسيان او تأخذه الغفلة: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ((5)

و لهذا ايضاً في نهاية حياة الرسول "ص" لمّا رجع من حجة الوداع جمعهم و نادى بهم منصِّباً خليفته الذي هو نفسهُ؛ (كأنّي قد دُعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر؛ كتاب الله تعالى، و عترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض). ثم قال؛ (ان الله عز و جل مولاي، و انا مولى كل مؤمن. ثم أخذَ بيد علي بن ابي طالب (عليه السلام) فقال؛ مَنْ كنتُ مولاه فهذا وليّه، اللهم والِ مَن والاه، و عادِ مَن عاداه.) رواه النسائي في الكبرى (8148)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (1765)، والحاكم في المستدرك (4576). ونقل ابن كثير عن الذهبي تصحيحه، كما في البداية والنهاية 5/229. وقال الألباني: وهو حديث صحيح، جاء من طرق جماعة من الصحابة خرجت أحاديث سبعة منهم، ولبعضهم أكثر من طريق واحد، وقد خرجتها كلها وتكلمت على أسانيدها في سلسلة الأحاديث الصحيحة. "ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة" 2/338: وانظر التخريج الموسع للحديث في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" 4/330.

الحقيقة ان هذا الأمر، أعني مواصفات القائد الأمثل كما بيّناها آنفاً، لا يكون إلّا في الأنبياء و الأئمة الذين جعلهم الله أئمة يهدون بأمره؛ (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (آية73سورة الأنبياء)

و لكي تطمئن نفوس الناس لإتباع الرُسُل و الأئمة المهديين يجري الله تعالى على أيديهم المعجزات. و المعجزة هي أمرٌ خارقٌ للطبيعة يجريه الله تعالى على يد مُدَّعي النبوة او الإمامة ليكون شهادة بأنه متصلٌ بالله و ان ما لديه إنما هو من عند الله تبارك و تعالى. فالمعجزة هي برهانٌ يقتنع به الناس بأن هذا الشخص مرتبط فعلاً بالله تعالى، و بذلك تطمئنُ نفوسهم لإتباعه و السير على سنّته و الأخذ بأحكامه.

بما اننا اليوم نعيش بعد انتهاء عصر الأنبياء و لا يمكننا الوصول للإمام الهادي المهدي، فقد انتهت تلك الحالة الفريدة من "سلوك القطيع" بشكل إيجابي تام.

إذن الجزء الأول من الإجابة على سؤالنا هو؛ ان "سلوك القطيع" يكونٌ حسناً و ممدوحاً بل و ضرورياً عندما يكون القائد حكيماً و عارفاً و مخلصاً و رؤوفاً بشعبه و لا يصدر عنه الخطأ و لا تأخذه الغفلة و متصلاً بالله تعالى.

للوصول للإجابة الكاملة أعتقد انه لابد من بيان الفرق بين سلوك القطيع الممدوح او الإيجابي عند البشر و سلوك القطيع لدى الحيوانات.

أما الحيوانات فإنها تتحرّك بغريزتها و ليس بعقلها فقد تتبع حماراً! فتراها تتبع قائدها مهما كان، و تسير خلفه و هي مغمضة العين و مسلِّمةً له مصيرها بكل هدوء، بل و حتى لو ألقى نفسه في النار فإنها سوف تلقي بنفسها خلفه!

و أما البشر العاقل و الواعي فلابد له من ان يتأكّد من توفّر قاعدة عقلائية و منطقية يمكنه ان يبني عليها سلوكه "القطيعي" و هو مطمئنٌ بصواب حركته. أي ان سلوك القطيع الممدوح لديه يتكوّن من مرحلتين؛ الأولى توفّر أساس منطقي و برهان عقلي تطمئنُ له نفسه بأن الشخص الذي سيتّبعه او التيار الذي سيندمج فيه و يتحرّك معه يستحق الإتباع و يمتلك مؤهّلات تؤكّد حقانيته و صوابية مسيرته و صحة خياراته و دقة قراراته و صلاح سريرته و إخلاصه لقضيته.

بعد هذه المرحلة و لنُسمّيها مرحلة الأساس العقلي او الدليل او البرهان، تأتي مرحلة الحركة و التبعية و الانسجام مع المجموع، و فيها يتحرّك مع الكل و ضمن "القطيع" آمناً مطمئناً. و هذا هو أول فرق بين سلوك الانسان و سلوك الحيوان في هذا المجال. لكن الانسان العاقل و المسؤول يحافظ في هذه المرحلة و اثناء مسيرته، و تحرّكه مع المجموع او إتباعه لذلك القائد، على عينه مفتوحةً و عقله متيقّظاً مراقباً المسيرة فقد ينحرف القائد لأي سبب سواءٌ بسبب غلبة الشهوات عليه او الأمراض الجسدية التي تؤثر على دقة حساباته و صوابية قراراته فعندها ينبغي ان يتوقّف عن الذوبان في القطيع و ينسحب ليعيد حساباته و يحدّد خياراته بمفرده، و هذا هو الفرق الثاني بين الانسان و الحيوان في هذا الموضوع.

بكلمة أخرى يبقى العقل ضرورياً في كلتا المرحلتين؛ في توفير الدليل، و في مرحلة الحركة و الإتباع، فهو كالمصباح الكاشف ينير الطريق و هو كالبوصلة يُحدِّد الاتجاه طوال المسيرة منذ لحظة البدء.

و الى الحلقة القادمة بإذن الله، سائلاً الله تعالى ان يفرّج عن كل مكروب و ينصر كل مستضعف و يشافي كل مريض ببركة الصلاة على سيدنا محمد و آله الاطهار، و ببركة هذه الأيام المباركة.